

## كتاب الشهر

### عايدة الجوهري في دراسة تفكيكية لـ "الف ليلة وليلة" شهرزاد البطلة العربية التي روّضت المنظومة الذكورية

لطالما اخذ بعض الباحثين على شهرزاد انها تمثل صورة المرأة التقليدية الخاضعة لسلطة الرجل. الا انه في كتابها "دروس شهرزاد" تقدم عايدة الجوهري مطالعة ملفتة، معتبرة ان شهرزاد تمردت على العقلية والعادات الذكورية من خلال... السرد

احتل كتاب "الف ليلة وليلة"، خصوصا قصة شهرزاد (هي الحكاية الاطار للحكايا الفرعية الاخرى)، مكانة خاصة في الذاكرة والوجدان الجمعي العربي. فالقصص والحكايا التي ضمها الكتاب، نسجت من رحم المخيال والاساطير الشعبية والادب الشفوي في المجتمعات العربية في القرون الوسطى، كما عند الحضارات الشرقية، لا سيما الهندية والفارسية. قصص حملت عبرا ودروسا في نهايتها، لكن جلها عكس القيم الابوية والمنظومة الذكورية التي سادت تلك المجتمعات. فتنت شهرزاد الملك شهريار، وقتنتنا جميعا، فتركت بصماتها في الادب والتشكيل والفن السابع، عبر مئات الروائع المستلهمة من قصتها.

الا ان الباحثة والاكاديمية عايدة الجوهري تقدم قراءة مغايرة لهذه الشخصية النسائية في كتابها "دروس شهرزاد" الصادر حديثا عن "مركز دراسات الوحدة العربية". ففي وقت رمزت شهرزاد الى "صورة المرأة العربية الضعيفة، الخائفة، الخاضعة لارادة الرجل وسلطوته المهيمنة في المجتمعات العربية والشرقية منذ عصور، يقدم الكتاب قراءة سوسيولوجية جندرية لشخصية شهرزاد تبرز قدرة المرأة العربية، ان ارادت، على مواجهة مظالم المجتمع الابوي والثقافة الذكورية عليها، وتوضح ان التمييز ضد المرأة لا يستند الى فوارق ومميزات طبيعية ثابتة، بل هو مسألة ثقافية ترتبط بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والتربوية السائدة في اي مجتمع".

عبر اتباع التحليل البنوي الذي يسمح بتفكيك الخطاب ومكوناته والتعمق في شخصية شهرزاد وخصالها وخلفيتها الثقافية والادبية، تقدم الجوهري اضافة

نوعية في هذا المجال. هكذا، قسمت كتابها الى سبعة فصول اعادتنا الى اصل شهرزاد واستراتيجيتها في الصراع مع شهريار، وسردها الخلاق، وصولا الى انها تمثل "صوت المرأة العباسية الحرة" لان شهرزاد انبثقت في ذلك العصر، بغض النظر عن ان اصل الحكاية مستلهم من الادب الهندي او الفارسي.

على اي حال، لا بد من العودة الى اصل "الف ليلة وليلة" رغم ان ذلك ما زال مدار جدل ونقاش حتى اليوم. ايا كانت الخلاصات والاستنتاجات حول الحكايات الفرعية التي تضمنها كتاب "الف ليلة وليلة"، فان الباحثين اجمعوا على ان حكاية شهرزاد (لحكاية الاطار) مستلهمة من التراث الادي الهندي، وتحديدًا من كتاب "شوكا ساتباتي - حكايات الببغاء الاربعون". الا ان في رحلة انتقالها من الثقافة الهندية الى تلك العربية خلال العصر العباسي تحديدا (بين 750 و847 ميلادي)، خضعت لمغيرات جوهرية طالت عناصر الحكاية، ابرزها تغييرات نوعية وجندرية اصابت الشخص الرئيسة في القصة. ففي "حكايات الببغاء الاربعون"، يسرد الببغاء حكايا على الزوجة "قمر السكر" على مدى ليل، كي يلهيها عن خيانة زوجها الغائب عن القصر. اما في نسختها العربية، فقد تعاكست الادوار تعاكسا جنسانيا كليا وحصل انقلاب خطير في الادوار الانثوية والذكورية، ف"احتلت شهرزاد مكان الببغاء العاقل واخذت ناصية الكلام والمبادرة وتزعمت الاحداث وصنعتها وصنعت مصيرها ومصير من حولها، فيما شغل شهريار دور قمر السكر، وتحول الى مستمع صاغر، مستسلم ذاهل، خامد".

كيف غادرت شهرزاد النموذج الانثوي النمطي وتمردت عليه؟

منذ هبوطها في قصره مرورا بالليالي الالف وليلة، وصولا الى انتصارها على الموت وفوزها بقلب شهريار وعقله. نجحت في تأجيل موتها مع كل اكتمال قمر، عبر الحكايا التي راحت تسردها ضمن اجزاء مترابطة. واذا ينتهي الليل، ويدرك شهرزاد الصباح، فتسكت عن الكلام المباح، وتؤجل بقية الحكاية حتى السهرة التالية وهكذا دواليك.

اخذ بعض الباحثين على شهرزاد انصياعها لشهريار وتذللها له وتعاملها الدوني معه واسترضائه ولو بواسطة السرد البارع. ورأوا انها لا تعلم المرأة التمرد على الرجل، بل اتباع حيلة المراوغة والتحايل والمهادنة. الا ان عايدة الجوهري تعاكس ذلك في دراستها. اذ ترى انه منذ قرارها الذهاب الى شهريار والمواجهة، انتقلت شهرزاد الى الفعل، مفصحة عن "شخصية ايجابية مقدامة لا تمنعها شجاعته وعزيمتها من الانحياز الى خيار التفاوض لا الامحاء، بوصفه الخيار الامثل والاكثر تجانسا لحل النزاع الدائر بين شهريار وبينها".

تعتبر الباحثة ان شهرزاد ابدت حكمة فائقة بانحيازها الى خيار التفاوض السلمي القائم على الاستمالة، من دون الخيار العدائي القائم على الايذاء. اذ كان في وسعها التخطيط لقتل شهريار، لكنها بدلا من ذلك قررت استمالة وتحويله الى حليف لها. من خلال تبني هذه الاستراتيجية، ارادت شهرزاد ان تقول لنا ان "الامراض الذكورية لا تستاصل بالقوة والعنف، بل بالحوار والتثقيف والتسوية وحتى بالمراوغة". وترى الجوهري انه في كل الاحوال، لم ترد شهرزاد اقتلاع النموذج الذي يمثله شهريار من جذوره، بل معالجته وتقويمه "بالسرد الشافي من العلل وبكثير من الحب والحنان، لكن ايضا بتقديم نموذج بديل للنساء الصاغرات اللواتي تم سوقهن كاكباش فداء الى سريره المسموم".

على الضفة الاخرى، تتوقف الجوهري عند موقف شهريار الذي كان يصمت في حضرة شهرزاد، صاغيا ومستمتعا بحكاياها وبسردها البديع والمحكم والمشوق، وبذلك



غلاف الكتاب.

### حلت عقدة شهريار من خلال ملكة السرد المشوق التي تمتعت بها

انتزعت شهرزاد منه "بكياسة مفطرة حق الكلام الممنوع على ضحاياه. وبانتزاعها حق الكلام، تنتزع حق الوجود والاعتراف". لكن الاذن بالكلام الذي حصلت عليه شهرزاد في الليلة الاولى، قد يبطل مفعوله في الليلة التالية. لذا، قامت خطتها على ايقاف السرد في لحظة حرجة من سير الاحداث، وتطور الحكاية. فلما ادرك شهرزاد الصباح وسكنت عن الكلام المباح، قالت لها اختها المتواطئة معها في خطتها "ما اطيب حديثك والطفه واعذبه". هنا، تغتنم شهرزاد الفرصة كي تعد بما هو اشد اثارا في الليلة المقبلة، قائلة: "واين هذا مما احدثكم به الليلة القابلة، ان عشت وابقاني الملك حية".

بهذه الجملة، ترى المؤلفة ان شهرزاد فتحت باب التفاوض العلني القائم على الاستمالة والاغواء بالسرد المؤجل والموعود، مؤسسة لعقد سري مكتوم يقضي بالسرد في مقابل الحياة كأننا بها تقول: "هني الحياة، اهيك السرد واللذة والمعرفة واحلق بك على اجنحة الخيال". هذا ما دفع شهريار الى القول في نفسه: "والله لا اقتلها حتى اسمع بقية حديثها". امر سيؤدي الى ان "بيانا الليلة الى الصبح متعاقبين، وما لم يقله شهريار لفظيا، عبر عنه بالعناق، مؤذنا بافتتاح دورة الحكى والحب، وبدخول الثنائي مرحلة جديدة من تبادل الخدمات التي لم تعد تقتصر على مبادلة السرد بالحياة بل على مبادلة الحب بالحب ايضا".

وتخلص الباحثة الى ان السرد الشهرزادي استأثر بعقل ووجدان ومشاعر وانتباه شهريار بفضل الكم الهائل من الحكايات العجائبية والغرائبية والاسطورية التي اختزنتها ذاكرتها، لكن ايضا "بفضل اتقانها فن التشويق الذي لولاه، لفقد شهريار بعضا من شغفه". علاوة على ذلك، اثبتت الدراسات الحديثة اهمية السرد كوسيلة علاجية "للقاصرين على النضج النفسي" كما لتحريهم من مخاوفهم وهواجسهم. وعليه، فسرد شهرزاد البديع اعاد الى شهريار المبتلى بالقصور العاطفي ذاتيته ووعيه وساهم في نضجه وانقاذه من افعاله الطفولية الخطيرة وسكن قلعه برواية حكايات تنحاز ككل الاساطير الى قيم الخير والاصلاح وفق ما ترى الباحثة.

في المحصلة، فان شهرزاد التي استثارت العقل والوجدان والخيال لا العواطف، احدثت انقلابا في حياتها وحيات بنات جنسها، وهو "انقلاب مجازي رمزي على العقلية الذكورية المغالية المتطرفة القائمة على جوهرائية نقصان المرأة. وهذا الانقلاب لم يكن ليتم لولا ان شهرزاد لم تبرز كنموذج نقيض للمرأة المتخيلة، التافهة، واللامسؤولة والقاصرة عقليا واخلاقيا كما للنموذج الانثوي التقليدي".